الخاتمة

الحمدُ لله حقَّ حمدِهِ، والشُّكر له على مَزيدِ فضْلِهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خير خلقِهِ، مُحمَّد بن عبد الله، وعلى آله وصَحبِهِ... وبعد:

فلا بدَّ لأيِّ عمل علمي من نتائج، ومن دراستنا لموضوع «الحياة العلمية في المدينة خلال المدة ١١٤٣-١٣٣٧ هـ/ ١٧٣٠-١٩١٩م»، نستطيع أن نوجز أبرز النتائج التي توصل إليها البحث والمتمثلة في النقاط الآتية:

لقد أبرز التمهيد أن موقع المدينة النبوية يتوسط العالم الإسلامي وهذا الموقع الجغرافي بما يمتاز من خصائص متعددة له قيمته وأهميته على مر العصور، ثم كان الحديث عن أحوالها السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية لإعطاء صورة عن البيئة التي عاش فيها العالم المدني وذلك خلال مدة الدراسة؛ ونظرًا لمكانة المدينة القدسية ومنزلتها في قلوب المسلمين أجمع، فقد حرص الساسة في الحكومات الإسلامية المتعاقبة على ضمها تحت لواء حكوماتهم، بداية بدخولها سلميًا تحت سلطة العثمانيين، ثم تحت الحكم السعودي في الدولة السعودية الأولى، ثم رجوعها إلى التبعية العثمانية نتيجة لحروب محمد علي. ومع تبدل الحكومات كانت المدينة تجرى عليها إصلاحات في مناصبها الإدارية و الدينية، كالقضاء، والإفتاء، والحسبة، والأغوات، وأثر الدعوة السلفية في المدينة أثناء دخول المدينة في الحكم السعودي.

كما ناقش الكتاب مشكلة أمن طرق الحجَّاج المؤدِّية إلى الأماكن المقدسة، والإجراءات الأمنية التي قامت بها السلطات العثمانية لوقف هجمات العربان على قوافل الحجيج والعمل على تأديبهم، وخلص الكتاب إلى أن هذه الإجراءات لم تحقق الأمن الكامل.

ومن خلال دراسة الأحوال الاقتصادية بدا أنّ المدينة تمتعت بامتيازات عثمانية عديدة من حيث إعفاء سكانها من التجنيد والضرائب، وفي الوقت نفسه تدفقت عليها الأموال والهبات، إضافة إلى استفادة الأهالي من موسم الحج وما يصاحبه من نشاط تجاري كبير، ساعد عليه موقع المدينة التجاري المتميز، وهذا شجع على رواج التجارة بها في أصناف كثيرة من السلع، وظهور عدد من الصناعات الخفيفة والحرف اليدوية، واشتغال الأهالي بالزراعة، وتصريف منتجاتهم ومحصولاتهم في أسواق المدينة. غير أن أهم المظاهر الاقتصادية بالمدينة هو وصول سكة حديد الحجاز قبل الحرب العالمية الأولى والذي أدى إلى ازدهار اقتصادي كبير فتدفق عليها الكثير من المنتجات الصناعية والزراعية.

وفي دراسة الأحوال الاجتماعية تبين أن البنية السكانية للمدينة تتكون من أصول وجنسيات مختلفة استوطنوها فأصبحوا يمثلون عنصرًا مهمًا من التركيبة السكانية للمدينة. أما ما يتعلق بالأطعمة والأشربة فكانت هي الأخرى خليطًا تبعًا لخليط الأعراق المديني، وكذا تنوعت ملابسهم حسب طبقاتهم الاجتماعية وأحوالهم المادية.

وأظهرت الدراسة تميز منازل المدنيين بتعدد أدوارها الذي يسمح باستضافة الزوار في موسم الحج خاصة وجمال وقوة بنائها، وحسن تخطيط

شوارعها وحرص سكانها على جعل مساكنهم ومتاجرهم محيطة بالحرم النبوي. كما تطرق الكتاب إلى احتفالات المدنيين في مناسبات الزواج ورمضان والعيد ونحو ذلك، ولم يغفل البحث عن ذكر الأمراض الشائعة وكيفية معالجتها، ثم انتقل الحديث في فصول الدراسة الأربعة على التركيز على الناحية العلمية.

ففي الفصل الأول عالج الكتاب موضوع عوامل ازدهار الحياة العلمية في المدينة. لأنَّ **الاهتمام بالتعليم** مطلب اشترك فيه السلاطين العثمانيون وولاتهم والأهالي، فاهتموا بالعلماء ورفعهم إلى المرتبة التي يستحقونها، كما اهتموا ببناء المدارس وفتحها لطلاب العلم، و إقامة المكتبات، وتزويدها بالكتب الموقوفة وغيرها. بهدف استمرار العملية التعليمية بمدينة الرسول ﷺ.

وفي مبحث الأسر العلمية: لاحظنا ظهور أسر علمية مدنية استمر عطاؤها العلمي طيلة مدة الدراسة، ومن الأسباب الأساسية في استمرار هذا النوع من الأسر أخْذ العلم في البيت عن الوالد وعن الجدّ، وتختلف الاتجاهات العلمية لكل أسرة، فأسرة اشتهرت بالحديث، وأخرى اختصت بالأدب، وعلى صعيد المناصب، فبعض الأسر دام فيها الإفتاء عقودًا، وبعضهم تولوا القضاء، وأسر اختصت بالإمامة والخطابة بالمسجد النبوي مدة طويلة ، وقد ساعد النتاج العلمي لهذه الأسر في إثراء الحركة العلمية بالمدينة.-

كما أنَّ **رحلات الحج والزيارة** أثرت بشكل مباشر وغير مباشر على الحياة العلمية بالمدينة، فقد اقترن مجيء بعض الزوار للمدينة وخاصة

العلماء منهم بطلب العلم الشرعي على علماء المدينة، فاندمج هؤلاء في النسيج العلمي المدني، فظهر منهم بعد مدة من بدأ بإلقاء الدروس بالحرم النبوي نظرا لغزارة علمه، ومنهم من انصرف إلى التصنيف أو انتهز الفرصة في شراء الكتب وحملها معه إلى بلاده، ومنهم من حرص على تقييد رحلته بأداء النسك من الحج والزيارة، فكانت هذه الرحلات مصدرا ثرياً بالمعلومات عن البقاع المقدسة.

وفي مبحث الوراقين تناول الحديث ماهية الوراقة وأخلاق المشتغلين بها وأدواتهم وأماكنهم، والعوامل التي ساعدت على رواج مهنة الوراقة بالمدينة، وتطرق الحديث إلى التجليد والترميم، وكيف حافظ المدنيون عن طريق هذه المهنة على مؤلفاتهم و مؤلفات أسلافهم على السواء. وكشفت الدراسة عن تطلع المدنيين لتأسيس المطابع الأهلية، التي أسهمت في طباعة الكثير من الكتب العلمية، وتطرق الحديث لأوائل الصحف الصادرة بالمدينة ودورها في نشر الثقافة بين أبناء المنطقة.

وأما مبحث المكتبات فقد عرفت المدينة أغلب أنواع المكتبات المعروفة والتي كانت تضم نفائس المخطوطات والكتب المطبوعة في فنون متعددة، وبلغات عربية وتركية وفارسية، كانت اللبنة الأولى لها من وضع مؤسسيها، ثم كان للوقف والإهداء دور كبير في زيادة أعدادها، ونتيجة لعوامل عدة من أهمها الأحوال السياسية والمناخية تعرضت للضياع والتلف.

وجاء الحديث في الفصل الثاني: عن **أماكن التعليم في المدينة**، ومن أهمها **المساجد**، وكان المسجد النبوي ولا يزال مكانا للتعليم، تعددت فيه الحلقات العلمية سواء في الروضة أو في أروقته، وشملت علوم الشريعة

والعربية وغيرهما. وكان نظام التدريس فيه يتصف بالمرونة، بحيث يجلس العالم للتدريس في العلم الذي تخصص فيه، وله حق اختيار الكتاب الذي يدرسه لطلابه والحضور، وللطالب بالمقابل حرية التنقل بين حلقات العلماء، لكن التقييد كان في أوقات الدراسة والعطلات، كما اتسع المسجد لقراء القرآن، والعلوم التي تخدمه، ومن كان يبعد بمنزله عن المسجد النبوي يجد مراده في المساجد الأخرى الموزعة في أنحاء البلدة الطاهرة، والتي ظهر بعضها خلال مدة الدراسة، وكان لها دور في تحفيظ القرآن، وقد اهتم السلاطين بعمارة المسجد النبوي والمساجد الأخرى بما يلائم طبيعة المكان والمكانة. حيث كان المسجد النبوي بمثابة الجامعة في وقتنا الحاضر.

وفي الوقت نفسه بين الكتاب حرص الدولة والأهالي على إنشاء **الكتاتيب** لأنها من المؤسسات التعليمية الخاصة بالصغار سواء للصبيان أم البنات، وشملت الدراسة تحديد أماكنها، والنظام الإداري والعلمي الذي كانت تسير في ضوئه لمكانتها العلمية في تعليم وتربية النشء.

وانتشرت في المدينة النبوية المدارس الوقفية والتي كان وجودها بالمدينة قبل مدة الدراسة، وامتدت في الازدياد والتطور حتى نهاية مدة الدراسة، وتمركزت في المنطقة المحيطة بالمسجد النبوي، و عرفت بأسماء مؤسسيها، وهم من كانوا يحددون النظام الذي تسير عليه المدرسة والمنهج والكادر التعليمي الملتحق بها، أما تمويلها فكان يتم عبر الأملاك الموقوفة عليها.

وفي دور العلماء تبين أن دافع العلماء للتدريس في بيوتهم هو حبهم

للعلم؛ لذلك خصصوا له غالب أوقاتهم، كما أن مجالس سمرهم التي كانت تعقد غالبًا في البساتين، تدور في العموم حول شؤون العلم ومسائله، أما النساء فقد كان تدريسهن للرجال من وراء حجاب يتوافق مع ما تأمرهن به الشريعة الغراء.

وبما أن **الأربطة والتكايا** وهي مراكز اجتماعية؛ فإنها أيضا قامت بدور علمي متميز. وقد وفرت لها الأوقاف والحكومات والأهالي الأموال اللازمة لضمان استمرار أداء دورها الاجتماعي في إيواء الفقراء وتعليمهم مع توفير الغذاء والملبس لهم.

وتناول الفصل الثالث: نظم التعليم ومسيرته والإنفاق عليه في المدينة. ففي مبحث **طرق التدريس في حلقات الدرس**، بين الكتاب أنواعًا من طرق التدريس في كل مرحلة تعليمية، فأساليب تعليم الصغار في الكتاتيب، تختلف عن أساليب تعليم الكبار في المسجد، والأخيرة مقتبسة في غالبها من هدي السنة النبوية، مع ذكر مميزات هذه الطرق ومدى تطبيق العلماء المدنيين لها في دروسهم. وشمل الحديث المدارس الرسمية ونظم الاختبارات في المرافق التعليمية والتي وضعت لتقيس تحصيل الطلاب، وما يتبعه من شهادات النجاح، التي ظهرت في المدارس نهاية مدة الدراسة، والتي تمثل مستوى التحصيل العلمي للطلاب.

وفي مبحث **المؤسسات التعليمية الحكومية الحديثة وتنظيماتها** كشفت الدراسة سعي الدولة العثمانية لإنشاء معاهد تعليمية حديثة مواكبة لروح العصر، من تحضيرية وابتدائية ورشدية وإعدادية ودار للمعلمين وجامعة، ولأول مرة يبتعث الطلاب للخارج للأخذ بالعلوم الحديثة، لكن قلة الإقبال

عليها والأحوال السياسية التي كانت مخيمة على العالم آنذاك لم يحقق الآمال المعقودة عليها.

وفي المبحث الخاص **بالمدرسين والوظائف التعليمية** أظهرت الدراسة وجود المعلم المتخصص لتعلم العلوم، والذي تميز بمظهر علمي مستمد من السنة النبوية، وبخصائص علمية فريدة. كما ألقى الكتاب الضوء على الوظائف التعليمية، وأهمها منصب رئاسة العلماء، وكيفية تعيين المدرسين الذي عادة يتم وفق مقاييس وصفات خاصة، مع عرض لبعض الإشكالات الواردة في هذا الشأن.

وفي **مبحث الطلاب** شركاء العملية التعليمية، نشاهد أن الطلاب تمتعوا بميزات عدة منها نشاطهم المتميز في الدرس، وطول مدة ملازمتهم لأستاذتهم، مع إظهار فائق الاحترام والتقدير لهم، كما نلمس أن حب الطالب المدني للعلم دفعه للسفر من أجل الاستزادة من العلم في أصقاع أخرى، مع العمل في ذات الوقت على نشر ما لديهم من علم هناك، كما تطرق الكتاب لنظام الإجازات العلمية التي تبين من خلالها مدى ما حصل عليه الطالب من علم، وبيان جملة من الأنشطة غير المنهجية التي كان يسمح للطلاب المدنيين بمزاولتها، وأخيرا بين الكتاب قواعد تأديب الطلاب.

وفي دراسة مبحث **العلوم والمصنفات التي كانت تدرس في المدينة،** نلمس مدى تنوع الكتب التي كانت تدّرس في حلقات الدرس بالمدينة، فشملت علوم الشرعية من قرآن وعلومه وتفسير وحديث ومصطلحه وأدعية وفقه وأصوله، وعلوم اللغة العربية من نحو وعروض وبلاغة، إضافة إلى العلوم الاجتماعية من تاريخ وأنساب، وكان لكل علم كتبه الخاصة به تم بيانها

مع كل علم بالتفصيل. وأكدت الدراسة أن العلوم التطبيقية كانت تدرس في المدينة أيضا وإن لم نحصل على أسماء كتبها.

وبالنسبة **لموارد الإنفاق وطرق الصرف على نظم التعليم** فقد خلص الكتاب إلى استمرار التعليم بطيبة، بعد أن فتح الله لها قلوب المحسنين من حكام وأعيان الذين أنفقوا بسخاء على التعليم، لذلك تنوعت أساليب إنفاقهم من أوقاف ومجموعة من العطايا والهبات مع ما يرد كل عام من أموال مرسلة من إسطنبول والمعروفة بالصرة، كما كشف الكتاب أن مرتبات المدرسين المعتمدين من الحكومة العثمانية كانت مستمرة في حياتهم وبعد الممات، إضافة إلى أعطيات وهبات وهدايا تمنح لهم وللمدرسين غير المعتمدين من محبي العلم من علماء وطلاب علم على السواء، إضافة إلى دخول أخرى لهم. تم الحديث عنها في مكانها المناسب من هذا الكتاب.

وفي الفصل الرابع كان الحديث عن: النتاج العلمي لعلماء المدينة. فعند الحديث عن **المجاورين** نجد تدفق أعداد المجاورون للمدينة من جهات وأقطار عدة من داخل وخارج شبه الجزيرة العربية، ومثلما اختلفت جهات قدومهم اختلفت مدة الجوار فهي بين أشهر وسنين، وربما فضل بعضهم الإقامة الدائمة والاستقرار بالمدينة. ومهما يكن من أمر؛ فإن هؤلاء المجاورين كانوا كالنهر المتدفق بالعلم والمعرفة. فقد دَرَسوا ودرَّسوا، وشاركوا في إنشاء دور العلم والمكتبات وتزويدها بالنفائس من مختلف المصنفات العلمية، بالإضافة إلى جهدهم في التأليف بالرحاب الطاهرة، ومنهم من تولى مناصب دينية وتعليمية مرموقة. وقد لقوا خلال إقامتهم من المدنيين كل ترحيب وتقدير، ولا غرابة؛ فهم أحد أسباب ثراء الحياة

العلمية بهذه المدينة المقدسة.

وكشف الكتاب في مبحث **المؤلفات العلمية لعلماء المدينة** دوافع هؤلاء العلماء في التأليف، فبعضها وضع بطلب من عالم أو مسؤول كبير أو بالتماس قدمه الطلاب لشيخهم بغية فهم المادة العلمية التي يدرسهم إياها. وانتهى الكتاب في دراسة المصنفات إلى أنها تحوي ذخيرة طيبة في علوم مختلفة، وإن تراوح إسهامهم العلمي في علم أكثر من آخر، ففي علوم القرآن جاءت مؤلفاتهم قليلة، بالنظر إلى طول المدة التي غطاها البحث، بالمقابل نلمح غزارة الإنتاج المدني في مصنفات أصول الدين والحديث وعلومه والحواشي والشروح.

وفي الفقه الإسلامي كانت مؤلفاتهم حصيلة فتاوى قيدوها ردًا على أسئلة واستفسارات وردت إليهم من أنحاء المعمورة لجلوسهم على كرسي الإفتاء. ومن جميل ما جاءت به مصنفاتهم الفقهية أنها شاملة جميع المذاهب الفقهية، واتخذ بعضها شكل النظم، مما يؤكد تمكنهم الواسع في هذا العلم.

وفي علوم اللغة العربية وآدابها، كان التصنيف في النحو يهدف إلى تبسيط هذا العلم للطلاب ولكشف دقائقه، لاسيما أن علماء المدينة عرفوا بنحاة العرب، وفي الوقت نفسه برزت براعة المدنيين في فني الشعر والخطابة من خلال أشعارهم وخطبهم التي تعج بها مؤلفاتهم وتراثهم العلمي.

ومن أهم ما تم تأليفه بواسطة علماء المدينة هو اهتمام المؤرخ المدني بتاريخ مدينته فدون كتبًا عن تاريخها بدقة ودراية، ولكن من كتب في علم التاريخ والتراجم لم يكونوا متخصصين، بل كانوا أصحاب تأليف في علوم

أخرى دينية وعربية، وهذا جعل علماء المدينة يظهرون في مؤلفاتهم أنهم أصحاب موسوعات علمية.

ومن الملحوظ ندرة في المؤلفات الجغرافية لعلماء المدينة، ونحن لانشكك في سياحة العالم المدني في الأقطار الإسلامية، لكن نأسف لعدم حرص بعضهم على وضع مؤلف شامل يسجل رحلاتهم تلك، أو ربما أنهم صنفوا في هذا الفن ولكن مؤلفاتهم فقدت أو وجدت في أماكن أخرى من العالم الإسلامي، وهو المصير الذي لاقته بعض الكتب المدنية وغيرها. حيث نلاحظ أن الكثير من المستشرقين الذين زاروا المنطقة كان همهم الكبير جمع المخطوطات وأخذها معهم بدليل وجودها في كثير من المكتبات العالمية.

أما المصنفات في العلوم الطبيعية، فقد بين الكتاب قلة اهتمام المدنيين بولوج هذا الباب، مفضلين عليها التأليف في العلوم الشرعية، لمكانة المدينة الدينية في العالم الإسلامي.

وفي آخر مباحث الكتاب جاء الحديث عن **أثر علماء المدينة في ازدهار الحركة العلمية في البلدان الإسلامية** فبينت الدراسة أن العالم المدني كان طوافا بحلقات علمه أينما ذهب، وهو في أي مكان يذهب إليه يجد آذانًا مصغية لحديثه. وأصبح القدوة والمثل الأعلى لغزارة علمه وخاصة في العلوم الشرعية واللغة العربية والدراسات التاريخية، مما أكسبه مكانة علمية مرموقة بين أقرانه من علماء عصره.

ولله الحمد أَولاً وآخرًا